

فلسفة التربية الحقة *

﴿ بقلم حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده الشير ﴾

وهي رسالة نقلها عن درس للاستاذ العلامة الفيلسوف الشيخ جمال الدين الافغاني الحسيني رحمه الله كان ألقاه على طلبته الافاضل عند ما كان يدرس كتاب الاشارات للشيخ الرئيس أبي علي بن سينا، وجعل ذلك الموضوع فاتحة تدويبه . قال حفظه الله اذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم أن قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلية في قوامها تفاعلا متناسبا بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالعلوية على باقيها غلبة تقضي بظهور بعض خواصه وتسلطها على خصائص البقية فبذلك التناسب يتم للبدن الحي ما يسمى بالمزاج المعتدل الحامل لروح الحياة فان غلب أحد العناصر على سائرهما واضمحلت خواص بقيتها فيه انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولى المرض على الجسم

وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على مساواه منها كذلك يكون بمغالبية المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الفريزية والحر الشديد الموجب للاحتراق وتحمل الرطوبة الضرورية المنتهي الى اليبس نذير الموت والقضاء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري لبحث في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ويعاد به المزاج الى حالة

الاعتدال ان خرج عنها تتم حكمة الله في بقاء الانواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة الازلية. فالنباتيون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ويوضحون مواد التسميد وغير ذلك مما لا بد منه في تربية النباتات وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وماذا يجب ان يتخذ منها لكل مزاج ومضار الاهوية ومنافعها ويقفون بتجاربيهم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى يحفظ بذلك على البدن صحته ويرجع اليها ان انحرف عنها

وان يكون الطبيب طبيبا يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعي وعلوم النباتات ليعلم خواصها ويميز نافعها من ضارها، وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها وما يلائم كل واحد على حسبه، وخبيراً بعالم الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف وتاريخها من قدم وحدوث حتى يعالج كلابما يليق به، فان جهل من ذلك شيئاً كان فقهه خيراً من وجوده، فان الطبيب الجاهل رسول ملك الموت اذ بجهله يستعمل من الادوية ما عساه يهيج المرض، ويعين من الاغذية ما يساعده على تسوته فيفضي ذلك الى هلاك المريض وقد كان بدونه محتمل الشفاء بمقاومته الطبيعية لولا مساعدة الجاهل وعونه، وكما يلزم للطبيب ان يكون عالماً بجميع ما قدمنا يجب ان يكون شفيقاً رحباً صادقاً أميناً، لا يكون قصارى عمله ما يناله من جمل المعالجة فانه ان كان قاسياً عديم الرأفة أو كان خائفاً فلربما صار آلة في أيدي أعداء المريض يستعملونه لهلاكه بالقائه السم في الادوية مثلاً أو إهماله في العلاج بما يقدمون

إليه من العرض الفاني، وكذلك ان قصرهما على ما يناله من الدينار والدرهم فإنه ان كان على تلك الصفة لم يكثر بحال المريض مادام يوفى أجر عمله فإن هلك فقد نال ما يزيد عن مكافأته وان امتد المرض زاد الأيراد بتوارد الأوقات فعدمه أيضا خير من وجوده

وكما أن روح الحياة البدني إنما يستقر حين تجتمع أصول متضاربة ينشأ من تعالبيها مزاج معتدل كامل وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الجبوي من حيث أتى - كذلك روح الكمال الانساني إنما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة يقوم من تضادها وتخالفا حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن لبيت سعادة الانسان وعاليم مدار حياته الفاضلة، فإن تغلب أحد الخلقين على الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة وبات شقيا سيء الحال وسقط في مهواة التنب والمنا المفضيين الى الحين والملاك ألا ترى ان النفس الانسانية لا بد لها من خلق الجراءة وخلق المخافة وهما متضادان؟ ومن مقاومتهما على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقف تتحقق فضيلة الشجاعة التي لو فقدت بتغلب المخافة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ولم يستطع عن نفسه دفاعا، وكانت حياته على خطر يهدده في جميع أوقاته. ولو أن الجراءة تغلبت على المخافة حتى ذهب أثرها كانت تهورا وعدم الكثرات بالهالك خلق وتغير حتى بدون تبصر ولا مراعاة حكمة فيلقي بروحه في مهاوي الهلكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه، وكذلك لا بد لها من خلق الامسك والبذل وهما متخالفان متعارضان يتقوم من تعالبيهما في النفس فضيلة السخاء والبذل في موضع الاستحقاق اذا اعتدلا، ولو أن الامسك تغلب على ضده حتى

اضحل فيه لا مسك عن قضاء لوازمه الضرورية فلا يأتي باللائق من
 الاغذية مثلا والالبسة فيضر بيده ولم يوف بحقوق مشاركته في المعيشة
 كزوجته وولده أوفى التعامل كجيرانه وأهل بلده فيقع الشقاق بينهم ويتأدي
 به الى شقاء دائم وغير ذلك من مفسد البخل التي لا تنحصر، ولو تغلب
 البذل لا تنفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيراً لا يجد ما ينفقه
 في أزم لوازمه فيهلك وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية انما هي وسط
 طرفين متضادين لا بد من ظهور اثر كل منهما علي نسبة معتدلة وبذلبة
 أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ولا محالة، وينهدم بيت السعادة دنيوية
 كانت أو أخروية، ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك، وكما يقع العناد بتغلب أحد
 الضدين على الآخر في النفس يقع أيضاً بتغلب أمر خارج على مزاج الفضيلة
 كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة
 والفرائز الناقصة وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لاعمالهم
 وتقلدها بماداتهم أو باستماع اغواء ذوي الاهواء وتغويها بآراء ارباب الاغراض
 الفاسدة الدنيئة المذيين للافكار الرديئة المؤيدين للعقائد الباطلة التي ينبعث
 منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة فللنفوس علل وامراض كما
 للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها
 وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج كما
 وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة الابدان كما يننا
 فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد وبيان مفسد
 الاخلاق ومنافعها وتحويل النفوس من حالة الكمال بمنزلة الاطباء، وكما لزم

للطبيب أن يكون عالماً بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الأمراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف كذلك يلزم للحكيم الروحاني طبيب النفوس والأرواح إذا رقى منبر الإرشاد أن يكون عالماً بتاريخ الأمة التي قام بإرشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الأمم أيضاً وأن يكون مطلقاً على درجات رقيها ودرجات تدهورها في جميع الأزمان وأن يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليطلع أسباب أمراضها النفسية ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وأنه حديث أو قديم قوي في النفوس أو ضعيف وما هو العلاج اللائق بكل صنف

وكما أنه يجب على الطبيب البدني أن يكون على علم تام بمنافع الأعضاء وفائتها كذلك على الطبيب الروحاني أن يكون عالماً بمنافع الأخلاق ومضارها على طبق ما في نفس الأمر والواقع .

وكما يلزم أن يكون الطبيب شقيقاً رحيمًا صادقاً أميناً لا ينظر إلى الدنيا ولا ينحط إلى المقاصد السافلة كذلك على النصحاء والمرشدين أن يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتقي المهتم أولى مقاصد عالية لا يديمون الفضيلة بحطام الدنيا ولا بالقرب والتزلف إلى الأمراء والكبراء . أولئك هم المرشدون الحقيقيون ، فإن رزقت الأمة بمثلهم فبشرها بالسعادة وإن رزقت بمطيين لا أطباء بانصمد على منابر النصح فيها الجهلة والأغبياء والسفلة والأدنياء ، فأنذرهم بالعناء والشقاء ، فإن المرشد الضال والنصح الجاهل يودع النفوس رذائل الأخلاق باسم أنها فضائل وينرس فيها جرائم الشر باسم أنها أصول الخير وربما كان مقصده حسناً ولا يريد إلا خيراً ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه ، ويمعده عن اتخاذ وسائله

فتقع الارواح في الجهل المركب وهو شر من الجهل البسيط فان ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له ان يلجئه، وصاحب الاول قد يمد عن المقصد بمراحل واستتر تحت نعم الرذيلة واعتقد ذلك ظلالاً فلا يمكن المدول عما وقع فيه الا بمد مكابدة شديدة وعناء طويل، فلاريب اذا كان عدم هؤلاء المرشدين خيراً من وجودهم. وكذلك ان كان خائناً أو دينياً ينحط الى سفاسف الامور أو عديم الشفقة الانسانية فانه يتخذ النصيحة سبباً للوصول الى أغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر، صفت النفوس أو تكدرت، ارتفعت الآداب أو انحطت، صحمت الارواح أو اعتلت، فيكون آله بيد الاشرار وذوي الاهواء يستعملونه في فساد الأمة والمشيرة لقضاء أو طارم

ألا وان القائمين بأمر الارشاد يحصرون في قبيلين: قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أرباب الجرائد، فان كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقد استحقوا التعظيم والاحترام والتبجيل والاجلال، واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وابناء جلدتهم، والا استحقوا الرفض والطرده والاباد ووجب على كل من يهمهم أمر الاصلاح أن يقذفوا بهم من البلاد كيلا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذي لا يقتصر على المبتي بل يعمدها بالسراية الى كل من سواه» اهـ

(الموسوعات)